كربلاء في الشعر العربي مقاربة أسلوبية دلالية

م.م نيكال غالب محمد

جامعة القادسية / كلية العلوم

Nigal.ghalib@qu.edu.iq

كربلاء في الشعر العربي مقاربة أسلوبية دلالية

م.م نيكال غالب محمد

جامعة القادسية / كلية العلوم

Nigal.ghalib@qu.edu.iq

الملخص

نادراً ما يخلو الوجدان الشعري من التوقّف عند تلك الدماء التي ما تزال آثارها ممتدّة في أفق المدينة، رافعةً رايةً حمراء ترمز إلى أقصى درجات البذل الإنساني، ومشكّلةً رابطًا حيًّا ومتجدّدًا ينقل إلى الأزمنة المتعاقبة حكاية ملحمة لا تنطفئ.

إنّها كربلاء؛ ذلك الفضاء الذي انصهرت فيه أبعاد المكان والزمان والرمز، فانبثقت على أرضه سرديّة الخلود المتمثّلة في ثلاثيّة دلاليّة كبرى: الحسين، عاشوراء، كربلاء. ومنذ لحظة الحدث إلى يومنا هذا، ظلّت هذه الثلاثيّة حاضرة في الوعي الشعري العربي، تتجلّى عبر اتجاهات فنيّة متنوّعة، ومحاور فكريّة متعدّدة، أفضت إلى تراكم نصّي غنيّ شكّل رصيدًا إبداعيًّا لا يُستهان به في تاريخ الشعر العربي.

وتسعى هذه المقاربة إلى إضاءة أبرز المسارات الدلاليّة والأسلوبيّة التي تناول من خلالها الشعراء واقعة كربلاء، وذلك عبر استعراض نماذج شعريّة ورد فيها اسم (كربلاء) صراحة في نصوص تنتمي إلى عصور مختلفة. ويُترك المجال للقارئ كي يتأمّل هذه الشواهد، ويستنبط منها طبيعة العلاقة التي أقامها الشاعر مع هذا الرمز، وما اختزنته هذه البقعة من قيم إنسانيّة عليا، كالتضحية، والرفض، والكرامة، والعدالة. كما جرى التوقّف عند تواريخ ولادة الشعراء ووفاتهم، لما لذلك من أهميّة في إبراز استمراريّة حضور كربلاء في الوجدان الجمعي، وفي الكشف عن التحوّلات الأسلوبيّة التي رافقت تناولها شعريًّا عبر المراحل التاريخيّة المختلفة.

ولمّا كانت كربلاء قد عُرفت عبر التاريخ بأسماء متعدّدة، مثل: الطفّ، ونينوى، والغاضريّة، والطفوف، وغيرها، وكان لكلّ اسم منها حضوره في النصوص الأدبيّة، فقد بدا من الضروري التنبيه إلى هذا التعدّد الدلالي. غير أنّ كثافة ورود هذه التسميات في الشعر العربي جعلت من الصعوبة بمكان الإحاطة بها جميعًا، الأمر الذي اقتضى الاقتصار في هذه الدراسة على المواضع التي ورد فيها اسم (كربلاء) بصيغتيه: المدّ والقصر، على الرغم من أنّ هذا التحديد لا يقلّل من حجم الجهد المبذول.

ولا يخفى أنّ تتبّع حضور هذا الاسم في نتاج الشعراء على امتداد ما يزيد على أربعة عشر قرنًا يُعدّ عملًا شاقًّا، لا سيّما في ظلّ محدوديّة المصادر التي تجمع هذا التراث الشعري في سياق واحد متكامل. ومع ذلك، فقد أمكن إنجاز هذه المحاولة لتكون إسهامًا في الكشف عن ملامح التشكّل الأسلوبي والدلالي لرمز كربلاء في الشعر العربي، وإبراز مكانته بوصفه رمزًا حيًّا متجدّدًا، لا يزال فاعلًا في الوعي الإبداعي إلى يومنا هذا.

الكلمات المفتاحية : كربلاء ، الشعر العربي ،المقاربة الأسلوبية

Karbala in Arabic Poetry: A Stylistic-Semantic Approach

Lecturer Assistant Nikal Ghalib Mohammed
University of Al-Qadisiyah / College of Science
Nigal.ghalib@qu.edu.iq

Abstract

Rarely is the poetic conscience devoid of a pause before that blood whose traces still stretch across the horizon of the city، raising a red banner that symbolizes the utmost degree of human sacrifice، and forming a living، ever-renewed bond that transmits to successive generations the story of an undying epic.

It is Karbala—that space in which the dimensions of place، time، and symbol fused together، giving rise upon its soil to a narrative of immortality embodied in a major semantic triad: al-Husayn، Ashura، and Karbala. From the moment of the event until the present day، this triad has remained present in the consciousness of Arabic poetry، manifesting itself through diverse artistic trends and multiple intellectual perspectives، resulting in a rich textual accumulation that constitutes a significant creative legacy in the history of Arabic poetry.

This approach seeks to illuminate the most prominent semantic and stylistic paths through which poets have addressed the event of Karbala، by examining poetic models in which the name "Karbala- appears explicitly in texts belonging to different historical periods. The reader is thus invited to contemplate these examples and to infer from them the nature of the relationship the poet established with this symbol، as well as the lofty human values embodied in this land—such as sacrifice، rejection، dignity، and justice. Attention is also given to the poets' dates of birth and death، given their importance in highlighting the continuity of Karbala's presence in the collective consciousness and in revealing the stylistic transformations that accompanied its poetic treatment across various historical stages.

Since Karbala has been known throughout history by multiple names—such as al-Taff، Nineveh، al-Ghadiriyyah، al-Tufuf، and others—each of which has appeared in literary texts، it was necessary to draw attention to this semantic multiplicity. However، the frequent occurrence of these names in Arabic poetry makes it difficult to encompass them all; therefore، this study is limited to instances in which the name "Karbala- appears explicitly in its two forms (with long and short vowelization)، though such delimitation in no way diminishes the magnitude of the effort undertaken.

Undoubtedly، tracing the presence of this name in poets' works over more than fourteen centuries is a demanding task، particularly in light of the limited sources that compile this poetic heritage within a single، integrated context. Nevertheless، this attempt has been accomplished as a contribution toward uncovering the stylistic and semantic formation of the symbol of Karbala in Arabic poetry and highlighting its status as a living، ever-renewed symbol that continues to shape creative consciousness to this day.

Keywords: Karbala، Arabic Poetry، Stylistic Approach

المبحث الاول

معنى كربلاء وأحداثها

اختلف الباحثون واللغويّون في تفسير معنى اسم كربلاء وفي تحديد جذره الاشتقاقي، وقد انعكس هذا الاختلاف في تعدّد الآراء الواردة في المصادر التراثيّة. ومن خلال استعراض تلك الآراء يتبيّن تباين المقاربات اللغويّة والدلاليّة للاسم. فقد أورد ياقوت الحموي في معجم البلدان ذكر كربلاء، وعرّفها بوصفها الموضع الذي استُشهد فيه الإمام الحسين بن علي (عليه السلام)، ويقع في أطراف البادية بالقرب من الكوفة. ويرى الحموي أنّ مدلول الاسم يمكن أن يُفهم في ضوء أكثر من وجه لغوي. أحد هذه الوجوه يعود إلى لفظ الكربلة بمعنى الوهن أو الليونة في القدمين، إذ يُقال: جاء يمشي مكربلًا، وبناءً على هذا التفسير يُحتمل أن تكون أرض هذا الموضع رخوة أو لينة، الأمر الذي انعكس على تسميته. كما يذهب تفسير آخر إلى أنّ الكربلة تُستعمل للدلالة على عمليّة تنقية الحبوب وتهذيبها، فيُقال:

يَحْمِلْنَ حَمْرَاءَ رَسُوبًا لِلثَّقَلِ

وقد غُربلت وكُربلت من الفصل

فيجوز على هذا أن تكون هذه الأرض منقّاة من الحصى والدَّغَل فسمّيت بذلك.

والكربل اسم نبت الحمّاض، فيجوز أن يكون هذا الصنف من النبت يكثر وجوده هناك فسمّي به. قال الشاعر يصف عُهُون الهودج: (ابن كثير، ١٩٦٦م : ١٩٨)

وتأتمر كربل وعميم دفلى

عليها والندى سبط يمور

يرى جورج قنازع، بعد استعراضه آراء عدد من الباحثين المحدثين حول أصل تسمية كربلاء، أنّ هذه الآراء لم تقتصر على التحليل اللغوي العربي فحسب، بل امتدّت إلى لغات وحضارات أقدم. وينتهي قنازع إلى ترجيح أنّ اسم كربلاء لا يعود في أصله إلى الجذر العربي، بل ينتمي في الغالب إلى مصدر لغوي غير عربي.

ويشير إلى أنّ هذه التسمية كانت تُطلق قديمًا على نطاق جغرافي واسع مرتبط بالمجال الحضاري لمدينة بابل القديمة، ولم تكن تشير إلى مدينة واحدة، بل إلى منطقة تضمّ عددًا من القرى الصغيرة المتجاورة. ولم يكن لتلك المنطقة حضور سياسي أو عمراني بارز في المراحل الأولى من التاريخ الإسلامي.

ومن بين القرى التي كانت تدخل ضمن هذا النطاق الجغرافي: كشفيّة، والغاضريّات، ونينوى، وماريّة، والعُقر، والتي يُعدّ بعضها من البقايا الأخيرة للحضارة البابليّة التي ظلّ أثرها قائمًا في تلك البقعة. (الآغا، ١٩٩٨م : ٥٧)

وربط بعض الكتّاب بين الاسم والفاجعة التي قُدِّر لها أن تصبغ أرض المدينة بالدم، فهي مركّبة من كلمتين هما كرب وبلاء، وإلى هذا أشار الشريف الرضيّ في قوله: «كربلا ما زلتِ كربًا وبلا» (جيوسي، ٢٠٠١م : ١٧٩)

اعتمادًا على منهج التتبّع الزمني الأقدم لذكر اسم كربلاء في الشعر العربي، يتبيّن أنّ الإشارات الشعريّة إلى هذه البقعة سبقت واقعة استشهاد الإمام الحسين (عليه السلام) نفسها، غير أنّها وردت في نطاق محدود جدًّا، إذ لا نعثر - بحسب ما وصل إلينا من مصادر - إلا على شاهدين

شعريين اثنين ذُكر فيهما اسم كربلاء قبل سنة ٦١هـ.

أقدم هذين الشاهدين يعود إلى سنة (١٢هـ / ٦٣٣م)، ويرجّح المؤرّخون أنّه أوّل نصّ شعري تضمّن ذكر هذه الأرض، وهو منسوب إلى الشاعر معن بن أوس بن نصر بن زياد المزني، صاحب القصيدة المعروفة بـ لاميّة العجم. ويُعدّ معن من الشعراء المخضرمين الذين أدركوا الجاهليّة والإسلام، وكان من المعمّرين؛ تنقّل بين الشام والبصرة، ثم فقد بصره في أواخر حياته، فكان يتردّد على عبد الله بن عباس وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وأدرك قيام عبد الله بن الزبير ولازمه، إلى أن توفّي سنة (٦٤هـ / ٦٨٣م). (الحصني، ١٩٩٦م : ٦٨)

والمثير في هذا السياق أنّ القصيدة التي ورد فيها اسم كربلاء صُنّفت عند بعض المؤرّخين ضمن شعر النوائح، وهو ما يوحي – على نحو رمزي – بأنّ هذه الأرض ارتبطت بالحزن منذ بدايات حضورها في النصّ الشعري، وكأنّ الأسى قُدّر لها أن يلازمها منذ فجر تاريخها. وقد أورد هذه القصيدة كلٌّ من ياقوت الحموي وأبي الفرج الأصفهاني في ترجمة معن بن أوس، أمّا البيت الذي ورد فيه اسم كربلاء فهو قوله:

إذا هي حلّت كربلاء فلعلعا
فجوزُ العذيب دونها فالنوائحا

ويرتبط هذا البيت بسياق تاريخيّ يتمثّل في حملة خالد بن الوليد على العراق، حيث تشير الروايات إلى أنّه، بعد أن تعذّر عليه عبور بعض المعابر، دُلّ على مخاضة قرب قرية الصيّادين أسفل المدائن، فعبرها بالخيل، ثم استولى على كربلاء عنوةً وسبى أهلها. وفي إثر هذه الحادثة نظم معن قصيدته الطويلة التي وصف فيها الوقائع، وكان البيت المذكور جزءًا منها.

ويُعدّ هذا النص – وفق ما استقرّ عليه أغلب الباحثين – أقدم شاهد شعري ورد فيه اسم كربلاء، بما يوحي بأنّ هذه الأرض كأنّما جُبلت منذ نشأتها على مأساة لا تنفكّ عنها.

أمّا الشاهد الثاني، فيعود أيضًا إلى السنة نفسها (١٢هـ / ٦٣٣م)، وهو بيت منسوب إلى رجل من قبيلة أشجع، قال فيه:

لقد حُبست في كربلاء مطيّتي
وفي العين حتى عاد غثًّا سمينُها

وتشير الروايات إلى أنّ المقصود بـ–العين– مدينة عين التمر، الواقعة على بُعد نحو ثمانين كيلومترًا من كربلاء. ويرتبط هذا البيت كذلك بحملة خالد بن الوليد على العراق، إذ أقام في كربلاء أيّامًا، فشكا إليه عبد الله بن وثيمة النصري كثرة الذباب، فقال رجل من أشجع – لم تذكر المصادر اسمه – هذه الأبيات تعبيرًا عن ضجره من الإقامة.

ومع عدم إمكان الجزم بأسبقيّة أحد النصّين على الآخر، فإنّ الثابت أنّ هذين القولين الشعريين هما أوّل ما وصلنا من ذكر كربلاء في تاريخ الشعر العربي، وكلاهما قيل في العام نفسه وفي سياق الحدث ذاته.

بعد ذلك، تبدأ مرحلة جديدة في تاريخ كربلاء الشعري، مرحلة اكتسبت فيها هذه الأرض حمولة رمزيّة كبرى، منذ أن ارتوت بدماء الشهادة، واحتضنت تلك الروح العظيمة التي جسّدت القيم السماويّة بأكمل صورها. ومنذ تلك اللحظة، لم تعد كربلاء مجرّد موضع جغرافي، بل تحوّلت إلى منبع إلهامٍ متدفّق، بثّ روحه في الشعر، ومنحه عمقه الأخلاقي وجوهره الإنساني، فيما استمدّ الشعر منها كثافته الدلاليّة وطاقته التعبيريّة.

وقد استقطبت ملحمة كربلاء كبار شعراء العربيّة عبر عصورها المختلفة، فاستلهموا من وقفة الحسين معاني الإباء والتمرّد والثورة، وظلّت كربلاء نابضة في وجدانهم، حاضرة في نصوصهم، حتّى في الأزمنة التي حاربت فيها السلطات هذا الاسم وحاولت طمسه(حداد، ١٩٩٨م : ١٢١)

وعلى الرغم من سياسات القمع والتنكيل التي انتهجها الأمويّون والعبّاسيّون بحقّ شعراء الحقيقة، فإنّ اسم الحسين وكربلاء لم ينقطع عن الألسنة، بل ظلّ يتردّد في السرّ والعلن. وقد بلغ هذا الحضور أقاصي العالم الإسلامي، فمع وصول المسلمين إلى الأندلس، وجدنا اسم كربلاء يتفجّر في شعرهم، كما شارك في هذا النهج شعراء الفاطميّين والحمدانيّين والبويهيّين، وغيرهم من أعلام الشعر في عصورهم.

وإذا كانت حصيلة الشعر الكربلائي عبر أربعة عشر قرنًا ضخمة ومتنامية، فإنّ ما وصل إلينا منها لا يمثّل سوى جزء يسير ممّا قيل فعليًّا؛ إذ أسهمت سياسات الإقصاء، والنزعات المذهبيّة، والصراعات الأيديولوجيّة في ضياع جانب كبير من هذا التراث. وقد تعرّض شعر كربلاء، ولا سيّما شعر الموالين لأهل البيت، لعمليّات طمس متعمّدة، لما كان يمثّله من تهديدٍ للسلطات، إذ يفضح جرائمها ويحرّك الوعي العام ضدّها.

وتكفي الإشارة إلى أنّ شعراء كبارًا، كالسيد الحميري والكميت بن زيد الأسدي، قد وصلنا من نتاجهم أقلّ بكثير ممّا ذكره المؤرّخون عن غزارة شعرهم، فضلًا عن شعراء آخرين طُمست أسماؤهم وأعمالهم بالكامل. وقد أشار أبو الفرج الأصفهاني إلى أنّ الشعراء كانوا يتجنّبون رثاء الحسين خوفًا من بطش بني أميّة، كما تحدّث المؤرّخون عن قصائد -المكتّمات- التي كانت تُخفى ولا تُذاع.

وهكذا يتّضح أنّ شعر كربلاء لم يكن مجرّد تعبير أدبي، بل كان فعل مقاومة ثقافيّة، وديوانًا للذاكرة، وسجلًّا حيًّا لصراع الحقّ مع الباطل، ظلّ يتشكّل رغم محاولات الإبادة والتغييب، وبقي شاهدًا على خلود تلك الملحمة في الضمير الإنساني (الحموي، ١٩٥٧م : ٤٥)

ويبدو أنّه قبل مقتل الحسين بن علي (عليه السلام) يوم عاشوراء، كانت كربلاء اسمًا لمدينة صغيرة، أمّا بعد عاشوراء فقد أصبحت عنوانًا لحضارة شاملة.

المبحث الثاني

القصيدة الكربلائية دراسة في الأسلوب

يتوازى مسار البحث في ملامح القصيدة الكربلائيّة مع تتبّع حضور الظاهرة الحسينيّة في منجز الشعر العربي الحديث، إذ يُلاحظ أنّ هذا الحضور لم يكن امتدادًا تقليديًّا لما قدّمه الشعراء القدامى، بل جاء محمّلًا بتحوّلات دلاليّة ورؤى جديدة فرضتها السياقات التاريخيّة والاجتماعيّة المعاصرة.

وتتمثّل الملاحظة الأولى الجديرة بالتوقّف عندها في أنّ الشعراء المحدثين تعاملوا مع واقعة كربلاء والثورة الحسينيّة بوصفها بنية رمزيّة مفتوحة، تتجاوز سرد الحدث التاريخي، لتستوعب أبعادًا سياسيّة واجتماعيّة متعدّدة، وتفيض بإيحاءات دلاليّة تتناسب مع قضايا العصر وإشكالاته.

ومنذ مرحلة مبكّرة، خرجت واقعة الطفّ من إطارها الحدثي الضيّق المرتبط بيوم العاشر من محرّم، وما شهده من استشهاد الإمام الحسين وأهل بيته وأصحابه، لتغدو علامة إنسانيّة شاملة، ترمز إلى كلّ موقف مقاوم للجور، وكلّ سعيٍ نحو إرساء العدل، وكلّ رفضٍ للباطل وممارساته. وهي القيم التي شكّلت جوهر الرسالة الإسلاميّة، وحملها عبر التاريخ دعاة الإصلاح والثورة، حتّى أصبحت كربلاء مرجعيّة أخلاقيّة يستلهمها الثائرون في مختلف الأزمنة(زهدي، ١٩٩٩م : ١٨٣)

فـإِنَّ الأُلَى بالطَـفِ مـن آلِ هَاشـمٍ
تَأَسَّـوا فَسَـنُّوا للكـرامِ التأَسِّـيَا

(الشاعر سليمان بن قتة)

بل إنّ تلك الغايات السامية، في حقيقتها، لا تنحصر في إطار دينيّ أو تاريخيّ بعينه، وإنّما تنتمي إلى المجال الإنسانيّ العام، إذ تمثّل تطلّعات أصيلة لكلّ فردٍ يمتلك وعيًا بذاته، ويسعى إلى استعادة كرامته وحريّته المصادَرة. وعلى هذا الأساس، يتّسع الرمز الكربلائي ليغدو مفهومًا عابرًا للحدود الزمنيّة والجغرافيّة، قادرًا على احتواء إشكاليّات الإنسان المعاصر ومعاناته.

وقد رافقت التحوّلات الجذريّة التي شهدتها القصيدة العربيّة في منتصف القرن العشرين ثورةٌ لم تقتصر على البنية الشكليّة وحدها، وإن بدت تلك التحوّلات واضحة في مراحلها الأولى، بل امتدّ أثرها ليطال البنية الدلاليّة والمضمونيّة للنصّ الشعري. وفي هذا السياق، اتّجه الشاعر الحديث إلى توظيف عدد من الأدوات التعبيريّة، من أبرزها الرمز، والأسطورة، وتقنيّة القناع، موظّفًا إيّاها في توليد رؤى شعريّة جديدة تتجاوز المباشرة والخطاب التقليدي.

ومن بين الشخصيّات التاريخيّة التي استحضرها الشعراء المعاصرون بوصفها أقنعة رمزيّة، برزت شخصيّة الإمام الحسين بن علي (عليه السلام) بوصفها الأكثر حضورًا وتأثيرًا؛ إذ تحوّل استشهاده في كربلاء إلى نموذجٍ أعلى للتضحية من أجل القيم النبيلة. ومن هنا، لجأ عدد من الشعراء إلى اتخاذ هذه الشخصيّة قناعًا فنيًّا للتعبير عن رفضهم للواقع القائم، والتمرّد على منظومة القيم المنهارة في عصرٍ اتّسم بالتخاذل والانكسار(جبارين، ١٩٨٩م : ١٦٢)

ولعلّ أدونيس يفوق غيره من الشعراء في الإفادة من معطيات شخصيّة الحسين، حيث يبدو مرتاحًا إلى هذا الرمز، يجود بشعره فيه، وذلك في مقطع «مرآة الشاه» من قصيدته «ماريا وأحلام حول الزمن المكسور»، حيث يعادل بين رمز الحسين ورمز المسيح، وتشارك الطبيعة بكلّ مظاهرها في الحزن على الحسين:

وحينما استقرّت الرماح في حشاشة
الحسين
وازدانَت بجسد الحسين،
وداسَت الخيولُ كلَّ نقطةٍ في جسد
الحسين،
وسُلِبت وقُسِّمت ملابس الحسين،
رأيتُ كلَّ حجرٍ يحنو على الحسين،
رأيتُ كلَّ زهرةٍ تنام عند كتف
الحسين،
رأيتُ كلَّ نهرٍ يسير في جنازة الحسين.

وكذلك تقنّع الشاعر فايز خضور بالحسين في قصيدته «اعترافات علي بن الحسين»، عبّر فيها عن مأساة المناضل العربي في الواقع الراهن، وأدان الواقع من خلال شخصيّة الحسين، متماهيًا معه

كنتُ أدعو لمصيرٍ عربيّ
منح الكونَ سلامَه
لا لعرشٍ دمويّ

وكذلك تقنّع خالد محيي الدين البرادعي بشخصيّة الحسين، فاتّخذه قناعًا في قصيدته «الحسين مقتول في كلّ مكان»، روى فيها قصّة خروج الحسين من الحجاز إلى العراق لإنقاذ المسلمين من السلطة القائمة آنذاك، وتماهى معه، فهو أيضًا يريد إنقاذ الوطن من المفسدين الذين ولغوا فيه فما شبعوا (جبارين، ٢٠٠٣م : ٢١١)

لقد كانت واقعة كربلاء حدثًا تاريخيًّا ذا أبعاد زمانيّة ومكانيّة، غير أنّ هذا الحدث قد فاض عن واقعه المحدّد إلى آفاق جديدة أكثر اتّساعًا. وسنعرض في الصفحات المقبلة نماذج من التوظيف الكربلائي في الشعر العربي الحديث.

القصيدة الكربلائيّة وشعراء الحداثة

من التمرّد على المطلع الطللي، إلى أبي نواس، وجديد أبي تمّام، والمتنبّي، والمعرّي، ثمّة تجارب إبداعيّة شكّلت حالاتٍ مغايرة من التفرّد والتمايز، لكنّ الثورة الحقيقيّة في الشعر العربي - كما يرى معظم النقّاد بدأت في مطلع خمسينيّات القرن الماضي، في ظلّ توافر مجموعة من العوامل الاجتماعيّة والسياسيّة والفكريّة والثقافيّة (الجدع، ١٩٨٦م : ٨٨)

إنّ الحركة الشعريّة التي لاحت بوادرها في الأفق العربي في أعقاب الحرب العالميّة الثانية كانت حركة شعريّة جديدة، وتعدّدت الأسماء المطروحة لها، مثل: -الشعر الحديث-، «الشعر الحرّ»، «شعر التفعيلة»-إلخ.

ومن المعروف أنّ هذه الحركة - التي يُرجع تأسيسها إلى الشاعرين العراقيّين نازك الملائكة وبدر شاكر السيّاب (الجدع، ١٩٨٦م :٨٨؛ حدّاد، ١٩٩٨م :٩٢) أحدثت انقلابًا في شكل القصيدة العربيّة ومضامينها وموضوعاتها، غير أنّ من المهمّ الإشارة إلى أنّ هذا الانقلاب لم يقلّل من وفاء هذه الحركة لواقعة كربلاء

وثورة الحسين، انطلاقًا من كونها رمزًا إنسانيًّا يلامس عواطف النفوس المرهفة (سلوم، ١٩٧١م : ١١٢)

ولذا، وتضامنًا مع الباحثين العرب الذين اعتادوا الدخول إلى عالم الشعر الحديث من بوّابة جيل الروّاد: السيّاب، ونازك، والبيّاتي، فقد نقّبتُ عن قصائد لهؤلاء الشعراء تحمل عبق كربلاء.

وقد آثرتُ أن أستهلّ هذا الفصل بالقصيدة العموديّة التي أفردها السيّاب لواقعة الطفّ، واحتفى فيها بثورة الحسين، وصوّر مأساة كربلاء تصويرًا عاطفيًّا سكب عليه من روحه، تلك التي اختار لها عنوانًا مميّزًا: -الدمعة الخرساء-، ونشرها في ديوانه «أساطير»، يقول فيها مخاطبًا يزيد بن معاوية) شبّر، ١٩٨٨م : ٥٨)

ارمِ السماء بنظرة استهزاء
واجعل شرابك من دمِ الأشلاء
واسدر بغيّك يا يزيد فقد ثوى
عنك الحسين ممزق الأحشاء
واملأ سراجك إن تقضّى زيته
مما تدرّ مناحر الغبراء
واسحق بظلّك كل عرض ناصع
وأبح لنعلك أعظُمَ الضعفاء
والليل أظلم والقطيع كما ترى
يرنو إليك بأعين بلهاء
أحنى لسوطك شاحبات ظهوره
شأن الذليل ودبّ في استرخاء
وإذا اشتكى فمن المغيث وإن غفا
أين المهيب به الى العلياء
مثّلت غدرك فاقشعر لهوله
قلبي وثار وزلزلت أعضائي
حيران في قعر الجحيم مُعلّقٌ
ما بين ألسنة اللّظى الحمراءِ
أبصرت ظلّك يا يزيد يرجّه
موج اللهيب وعاصف الأنواء

وبالرغم من أنّ هذه القصيدة تبدو، للوهلة الأولى، بعيدة عن ذكر واقعة كربلاء أو حتى عن شخصيّة بطلها الحسين، إلّا أنّ تجسيدها لحوارٍ بين الشاعر و-يزيد بن معاوية- يجعلها تصبّ في القالب نفسه، ويكشف إمعان الشاعر في تقصّي أبعاد صورة القاتل في أبيات القصيدة، وكأنّه يبغي من وراء ذلك التأكيد على أنّ واقعة كربلاء، بتفاصيلها هذه، كانت ثورة عظيمة، حتّى من دون الحاجة إلى ربطها بالبعد الديني. وهذا ما يؤكّد أنّ السيّاب تعامل مع الواقعة تعاملاً دنيويًّا لا دينيًّا (الطعمة، ١٩٨٨م : ٩٩)

وتشكّل هذه القصيدة لوحةً للظلم الإنساني، هاجت بها ذكرى يوم عاشوراء لدى الشاعر، إذ يعمد إلى تصوير شهوة الدم التي استبدّت بيزيد، واستهتاره بدماء الأحرار والمستضعفين، ولا سيّما حين أمر بقتل الحسين بتلك الصورة الوحشيّة (برأي الشاعر). غير أنّ للتاريخ حكمه، وللآخرة حسابها؛ إذ يُبصر الشاعرُ القاتلَ في درك الجحيم، مكلّلًا بالعار، ويداه موثقتان بالسوط الذي كان يعذّب به ضحاياه، يقول:

أبصرت ظلّك يا يزيد يرجّه

موج اللهيب وعاصف الأنواء

رأس تكلّل باللّظى واعتاض عن

ذاك النضار بحيّة رقطاء

ويدانِ مُوثقتان بالسوط الّذي

قد كان يعبثُ أمس بالأحياء

ثمّ يعرّج من -يزيد- إلى الحسين، الذي يعتبره شهيدًا صاحبَ رسالةٍ في هذه الحياة، رسالةٍ لا تنتهي بموت صاحبها، بل تستمرّ حيّةً خالدة، تفعل فعلها في الأجيال. ويشدّد على النتيجة التي يحصدها -يزيد- في آخر الأمر، وهي تَبَخُّرُ سلطانه ونفوذه، وبقاء اسمه سُبّةً في التاريخ، بينما تبقى الأجيال، في المقابل، لاهجةً بمناقب الشهداء: (عازم، ٢٠٠٥م : ٦٣)

قم واسمع اسمك وهو يغدو لعنة

وانظر لمجدك وهو محض هباء

القصيدة الكربلائية في أشعار محمد مهدي الجواهري

(جبّاران، ٢٠٠٣:٤٥؛ الجواهري، ١٩٩١:٦٨؛ عطية، ١٩٩٨:٥٠)

لقد أدّت حركة التجديد في الشعر العربي المعاصر إلى بلورة مفاهيم جديدة، فأخذت واقعة كربلاء أبعادًا أرحب، ولم تعد مجرّد استذكار للإمام الحسين بن علي (عليه السلام)، أو رغبة في إحياء مناسبة دينيّة؛ إذ صار الشعراء يميّزون بين الحسين الثائر بوصفه مثالًا لكلّ مظلوم لا ينبغي أن تُرهبَه القوّة، وبين الحسين الإمام ذي الحقّ الإرثي في الخلافة كما يُنظر إليه عقائديًّا.

ولعلّ الشاعر العراقي محمّد مهدي الجواهري من أبرز من عكسوا هذا التجديد، بل مثّل ثورة حقيقيّة في عالم القصيدة الكربلائيّة؛ فكما عهدناه في معظم قصائده ثائرًا سياسيًّا واجتماعيًّا، جاءت قصائده الحسينيّة امتدادًا لهذا النفس الثوري. وربّما لهذه الأسباب يستحقّ الجواهري منّا وقفةً لا يُستهان بها عند شعره.

كان الجواهري من كبار شعراء العربيّة الذين طرقوا مختلف فنون الشعر وأبدعوا فيها أيّما إبداع. وكان التفجّع والرثاء واحدًا من الفنون الشعريّة المتّصلة بأعماق الشاعر ووجدانه الحسّاس، حيث خلّف عددًا من القصائد المتميّزة في هذا الباب. ففي اثنتين من غرر قصائده، رثى الجواهري الإمام الحسين بن علي (عليه السلام)، وهما:

قصيدة «عاشوراء»، نظمها يوم عاشوراء في ذكرى مقتل الحسين في العاشر (١٠ محرّم ١٣٥٤هـ / ١٣ نيسان ١٩٣٥م)، يقول فيها:

هي النفس تأبى ان تذِلَّ وتُقهَرا

ترَى الموتَ من صبرٍ على الضيم أيسَرا

وتختارُ محموداً من الذِكرِ خالداً

على العيش مذمومَ المغَبّة مُنكَرا

مشى ابنُ عليٍ مِشيةَ الليث مُخدِراً

تحدَّته في الغاب الذئابُ فاصحَرا

وما كان كالمعطي قِياداً محاولاً
على حينَ عضّ القيدُ أن يتحررا
ولكنْ أنَوفا أبصَرَ الذُّلَّ فانثنى
لأذيالهِ عن أن تُلاثَ مُشمِّرا
تسامىَ سموَّ النجم يأبى لنفسه
على رغبة الأدنَينَ أن تتحدَّرا
وقد حلفتْ بيضُ الظُبا أن تنوَشه
وسمرُ القَنا الخطيِّ أن تتكسَرا

ويستعرض الشاعر في هذه القصيدة مأساة الحسين الشهيد منذ مغادرته بلاد الحجاز حتّى دخوله الكوفة واستشهاده في يوم الطَّفّ، إذ يقول:

ونُكِّسَ يومَ الطفّ تاريخُ أُمّةٍ
مشى قبلَها ذو صولةٍ متبخترا
فما كان سهلًا قبلَها أخذُ موثقٍ
على عربيٍّ أن يقولَ فيغدِرا

وقد يعترض بعض الباحثين على اعتماد هذه القصيدة نموذجًا للتجديد، في الوقت الذي تسير فيه على نهج المدائح والمراثي التقليديّة، فلا تختلف كثيرًا عن المراثي الحسينيّة الأخرى، التي أوردنا نماذج منها في الصفحات السابقة.

والإجابة عن مثل هذا الاعتراض مستَقاة من الدكتور أزهد محمّد زهدي، الذي يرى أنّ -أكثر ما يلفت الانتباه في هذه القصيدة هو الأبيات الثلاثة الأخيرة، التي يدعو فيها الشاعر إلى الامتناع عن تحريف التاريخ وتزويره، ممّا يستخدمه أعداء الأمّة لتفريق صفوفها، وبثّ دواعي الضغينة والتمزّق بين شبابها، بدعاوى جاهليّة وأخبار زائفة يتعمّد المرجفون إيرادها دون أن يكون لها سند من الواقع التاريخي- (الجواهري، ١٩٩١م : ٢٩٧)، يقول الجواهري:

أقول لأقوامٍ مضّوا في مُصابه
يسومونه التحريفَ حتى تغيَّرا
دعوا رَوعةَ التاريخ تأخذْ مَحَلَّها
ولا تجهدوا آياتِه أن تُحوَّرا
وخلوا لسانَ الدهر ينطقْ فإنّه
بليغٌ إذا ما حاولَ النطقَ عَبَّرا

وبذا، فإنّ التجديد في الموضوعة الكربلائيّة يكمن في هذه الأبيات على وجه الخصوص، إذ تشفّ عن رؤية جديدة للشاعر تختلف عن سابقيه في تناول واقعة كربلاء، من خلال تصريحه الواضح باحتجاجه على محرِّفي ثورة الحسين، ومناداته بالإبقاء على واقعة كربلاء في روعتها الأولى، دون تحويرها أو توظيفها بما يلائم أهواء الحكّام أو العامّة من الجهلة.

القصائد الكربلائية في اشعار عبد الوهاب البياتي (حامد ابو احمد ، ٢٠٠٠م: ٥)

في محاولةٍ منه لرسم صورةٍ فنيّةٍ للعراق، يتداخل فيها التراثُ الإسلامي بالبعد الإنساني، وتتّسم بروح التجديد، يمزج البيّاتي دمَ الحسين بطبيعة العراق، وذلك في قصيدةٍ له ضمن ديوانه "الموت في الحياة"(البياتي، ١٩٩٥م : ٢٦٦)

أرضٌ تدور في الفراغ ودمٌ يُراقْ

وَيحْي على العراق

تحت سماء صيفه الحمراء

من قبل ألفِ سنةٍ يرتفع البكاء

حزنًا على شهيد كربلاء

ولم يزل على الفرات دمه المُراق

يصبغ وجهَ الماء والنخيل في المساء

آه جناحي كسرته الريح

من قاع نهر الموت

يا مليكتي، أصيح مــن ظلمة الضريح

من الأبيات السابقة نلمس سعي الشاعر إلى المزج بين دم الحسين وطبيعة العراق، وكأنّ القدر المأساوي يفرض نفسه على كليهما، وينتظرهما في دوّامة متّصلة تتكرّر عبر الأزمنة، ومنذ أكثر من ألف عام.

وتتشابك معالم الحياة كلّها لتتضامن مع الحدث، وتنخرط عناصر المشهد الحياتي العراقي في حالة انفعال جماعي، فينشر الحزن والبكاء عباءتهما على الأجواء، ويواكبهما دوران الأرض المتّصل بالدم المُراق، ذلك الدم الذي يُسدل الستارة على المسرح، صابغًا الفرات والنخيل بلون المأساة في المساء (شرف، ١٩٩١م : ١٤٧)

القصيدة الكربلائية أحمد دحبور

(الآغا، ١٩٩٨ : ١٢٨)

يوظّف الشاعر الفلسطيني أحمد دحبور في قصيدته «العودة إلى كربلاء» موضوعة كربلاء ،المستندة إلى آلية مقتل الحسين في كربلاء، فيستنطق دواخله على أعتاب كربلاء (المدينة) وهي تلبس الواقعة التاريخيّة في ذاكرة مشرّد فلسطيني يستعيد من خلالها كلّ ما لقيه شعبه من عنت الاحتلال وخذلان الأخوة، يقول في مستهلّ القصيدة:

آتٍ، ويسبقني هواي

(نلاحظ أن العنوان) العودة إلى كربلاء (يوطّد علاقة قديمة بين الشاعر وبين كربلاء، فهو قد اختار عنوانًا يوحي بعلاقة ماضية يعاود الشاعر خلقها من خلال تعبيره «العودة إلى»

يستهل الشاعر قصيدته بمدخل مكاني، حيث يصرّح أنّه قادم إلى كربلاء يسبقه حبّه إليها.(دحبور، ١٩٨٣م : ١٥٦)

آتٍ، ويسبقني هواي

آتٍ، وتسبقني يداي

آتٍ على عطشي، وفي

زوّادتي، ثمرُ النخيل

فليخرجِ الماءُ الدفينُ

إليَّ، وليكنِ الدليل

يا (كربلاءُ) تلمّسي وجهي

بمائِكِ، تكشفي عطشَ القتيل

وتري على جرحِ الجبينِ

أمانةً تملي خطاي

وتري خُطاي

قيلَ الوصولُ إليكِ معجزةٌ

وقيلَ الأرضُ مغلقةٌ

إنّ هذا الفلسطيني الذي أثخنته الجراح وأضناه العطش، لا يجد من يروي ظمأه ويداوي جراحه إلا الشهداء الذين قضوا عطاشى، ودماؤهم الطاهرة التي سُفحت في أرض كربلاء، فيعود إليها كالعاشق الولهان، يحثّ الخطى، وهواه يسبقه، في محاولة للتوحّد مع من يحب. أعوامٌ من القهر يطويها للوصول إلى نبع الشهادة، بعد أن كان ذلك الوصول ضربًا من المعجزات.

يستحضر الشاعر في الأبيات السابقة مأساة الحسين، وينادي كربلاء الروح، وبهاء الموت الذي هواه وأحبّه، فجاء إليها رغبةً في التطهّر والفداء، والاقتراب من لحظة الحقيقة التي تملي عليه خطاه. وتشكل هذه المأساة معادلاً دلاليًا للإنسان الفلسطيني الذي وُجه بالخذلان، وأُدخل إلى نار المذبحة، وفار دمه ودم أهله، كما فار دم الحسين وأهله في كربلاء (الكركي، ١٩٨٩م : ٩٧)

إنّ الرمز هنا لكربلاء الفلسطينيين: الأسى، والعطش، والحصار، والغضب، والمأساة. إنّه البحث عن ماء في زمن العطش. لقد وصل إلى كربلاء رغم الطرق المغلقة، ورغم مشقّة الطريق، آملاً أن تكون البداية. ووجد الحسين نفسه وحيدًا في المواجهة، بينما تقاسم الآخرون أسرارهم وثمر النخيل.

ويرى الدكتور خالد الكركي أنّ "حضور الرمز هنا استدعاء مباشر ليقول من خلاله ما يريد، وهو رمز لا يحتاج إلى بناء مركّب في مثل هذا النصّ المباشر أيضًا، أي الذي يريد صاحبه الاحتجاج من خلاله على القتل، ويريد أيضًا أن يتحوّل الدم ـ كما تحوّل دم الحسين ـ إلى محرّض، ودعوة لثورة مستمرّة، لخروج الماء من أرض كربلاء لتروي عطش الحسين"(المصري، ٢٠٠٠م : ١١٩).

آتٍ على عطشٍ وفي
زوادتي ثمرُ النخيل
فليخرجِ الماءُ الدفين
إلي وليكنِ الدليل

وبذلك تكون الذاكرة البشرية قادرة على استعادة مآسي التاريخ الجارحة، وجعلها صورة من صور العصر الذي تُطبَّق فيه شريعة الغاب، حيث الفلسطيني الذي فُرض عليه الموت ليحيا، كما فُرض الموت على الحسين ليحيا، ويتحوّل إلى "بطل التراجيديا-، وليس مجرّد "بطل التاريخ-، كما أصبح موته علامة وجوده المستمرّ.

وبذلك يصبح الحسين فاعلًا في الزمان والمكان، ويمتلك ديمومة الحضور وصيرورة الوجود، ولا سيّما بعد رفضه الاستسلام رغم تخلّي أشياعه عنه، ورفضه مبايعة يزيد بن معاوية مقابل شربة من الماء تحييه، فاختار الموت بنفس راضية، وهذا ما يوحي إليه الشاعر في البيتين الثالث والخامس (المجلسي، ٢٠٠١م : ٢٨٩)

ثمّ ينظر الشاعر في مرآة كربلاء، فيرى تاريخ وطنه السليب ومآسيه، فيقول:

كانوا رعاةً بالثيابِ
وكانتِ الأسرارُ ذئبة
كنا تبايعنا على موتٍ
يقيلكِ من عذابِ الموتِ
في الأسرِ الطويل
فتقاسموا تمرَ النخيلِ

ولم يمتْ أحدٌ سواي
شاهدتهم، ومعي شهودي
أنتِ، والماءُ الذي يغدو دماً
ودمٌ لديهم صارَ ماءْ والنخيل

ثمّ يعترف الشاعر أنّه بقي وحيدًا يصارع الموت والمذابح والغربة والتشتت:

ودخلتُ في موتي وحيداً أستحيل
وطناً، فمذبحة، فغربة
وأتيتُ تسبقني يداي
يا (كربلاء)، تفورُ فيّ النار،
أذكرُ كيفَ تنقلبُ الوجوه
عرفوا الغريمَ وأمسكوه
ويُقالُ: كان يحبُّ في لحمي ويشربُ
من دماي
غضبوا عليه طوالَ ساعاتِ احتضاري
ثمَّ مُتُّ فتوَّجوه

وبعدها ينتقل الشاعر إلى تلمّس أوجه التشابه في الظروف التي أحاطت بالحسين وأصحابه المخلصين، وكيف أنّ من بايعوه على الموت دونه قد غدروا به لقاء ثمنٍ بخس ووعودٍ لم يتحقّق منها شيء. وهو نفس ما حدث للشعب الفلسطيني الذي تعرّض لمؤامرات داخليّة وخارجيّة لقاء أثمان معلومة، يشخّصها ويعرفها أبناء المخيّمات (كانوا دنانير الدخيل!)، فكان ما كان من ضياع الوطن، وقيام المذابح، والاغتراب، والنفي في شتّى أقطار الأرض. فلا يجد الشاعر بدًّا من العودة إلى نهر الدم الجاري في كربلاء ليبثّه همومه وأحزانه (نصر الله، ٢٠٠٣م : ١٦٦)

كلُّ الوجوهِ تكشّفتْ كلُّ الوجوه
ورأيتُ كان السيفُ في كفّي
وكنتُ لنظرةِ الفقراءِ كعبة
ورأيتُ من باعوكِ
باعونا معا
وتقاسمونا في المزادِ فما انقسمنا
كنتُ فيكِ النهر
والتحمتْ بعشبِك ضفّتاي
وقُتلتُ فيكِ ـ كما رأيتُ
أنا هو النهرُ القتيل
فليخرجِ الماءُ الدَّفينُ
إليَّ، وليكنِ الدَّليلْ
يا (كربلاء) وأنتِ جارحةٌ وصعبة
آتيكِ بالفرحِ الجريءِ،
وما حسبتُ الحربَ لعبة
آت ولو كرهَ السعاةُ إلى الخيول،
بلا فوارس
والسيوفُ بلا صليل
أودعتهم موتي وأرختُ
الحياةَ لكلِّ جيل
هذا زمانٌ يكبرُ الفقراءُ
فيه فيَقتلون ويُقتلون
هذا زمانٌ للبطولة

يلتحم الشاعر بالرمز الحسيني، ويجعله مفتاحًا لفهم مجريات الواقع الفلسطيني والعربي المعاصر. فأرض الحسين هي أرض الثورة الجديدة التي بيعت

في مزاد المصالح والمؤامرات الدوليّة، والذين تاجروا باسم الشعب وتواطأوا مع الغاصب المحتلّ يرفضهم الشاعر بجرحه النازف، وترفضهم كربلاء مخيّمات اللاجئين، حيث تنكشف الوجوه وتسقط أقنعة الزيف. وتبقى كربلاء كعبةً للفقراء؛ تلتحم الضفّتان بعشبها، وتتوحّدان في المصير. ولذا يمتاح الشاعر من مائها المشرب بالحمرة ليكون دليله في سفره الطويل، ثمّ يستمرّ(الكِليدار، د.ت : ٤١)

كربلاء في اشعار مظفر النواب

(الأسطة، ١٩٩٩ :٣٨؛ الحصني، ١٩٩٦م: ٤١)

يُعَدّ الشاعر العراقي مظفّر النوّاب أحد أبرز مجدّدي الشعر الشعبي العراقي، غير أنّه برع كذلك في كتابة الشعر الفصيح، واشتهر بنقده اللاذع للأوضاع السياسيّة في العراق والعالم العربي، الأمر الذي أكسبه حضورًا جماهيريًا عربيًا واسعًا، على الرغم من حظر أشعاره في أكثر من قطر عربي.

نراه في إحدى قصائده يستلهم وقفة الحسين البطوليّة في كربلاء، ليحوّلها إلى قيمة مطلقة للشهادة في سبيل الحقّ، وذلك من خلال حوارٍ ذاتيّ ومناجاةٍ شعريّة مع رأس الحسين الذي رفعه القتلة فوق الرماح، وطافوا به في البلدان إمعانًا في الجريمة، وتحدّيًا سافرًا لمشاعر المسلمين (النواب، ١٩٧٧م : ٥٢)

ويغدو هذا المشهد، في وعي النوّاب الشعري، رمزًا فادحًا لانقلاب القيم، وفضحًا صارخًا لاستمرار القهر التاريخي، حيث يتحوّل الرأس المقطوع إلى شاهد إدانة دائم للجلادين قديمًا وحديثًا، وإلى صوتٍ أخلاقيٍّ عالٍ يذكّر بأنّ الشهادة ليست حدثًا ماضيًا، بل موقفًا إنسانيًا متجدّدًا في مواجهة الظلم والاستبداد.

وكم أنت تعشق رأس الحسين
الذي فوق رمح ولا يستريح
تأبى الذوائب مذ ثبّتها
الدماء على غرّة أن تزيح
ومن ثبته الدماء محال يزيح

كما نلمس إصرار مظفّر النوّاب على التأكيد أنّه لا سبيل أمام الأمّة العربيّة للخلاص إلا طريق الثورة، وأنّ الحسين، في وعيه الشعري، لا يُحيل إلّا إلى معنى الثورة الدائمة في وجه الظلم. بل يذهب الشاعر في إحدى قصائده إلى أبعد من ذلك، حين يفترض أنّ الحسين، لو قُدّر له أن يرى نتائج الهزائم العربيّة المنعكسة على جسد المجتمع العربي، ولا سيّما على أطفاله، فإنّه قد يُنكر مأساته التاريخيّة أمام فداحة مآسٍ أخرى مماثلة، وربما أشدّ قسوة، ويدفعه ذلك إلى الثورة مرّةً أخرى.

بهذا التصوّر، لا يتعامل النوّاب مع الحسين بوصفه شخصيّة تاريخيّة منتهية، بل كرمزٍ حيّ ومتجدّد، يتجاوز زمنه، ويظلّ حاضرًا كلّما تجدد الظلم وتكررت الهزيمة، ليغدو الحسين في شعره معيارًا أخلاقيًا وثوريًّا يُقاس به الواقع العربي المعاصر، لا ذكرى مأساويّة تُستعاد للبكاء أو الرثاء (النواب، ٢٠٠١م : ٣٤١)

وأمقت من يشهرون النصوص سيوفا

ومن يكسرون السيوف

كلا الانحراف ريح

وأمقت من يشهرون الحسين لغير الوصول إلى ثورة

مثلما جوهر الأمر فيه والجنوح

لعل الحسين إذا ما رأى طفلة في شوارع بيروت

تنهش من لحمها الشهوات

وثم شظايا من القصف فيها

سينكر مأساته

والجروح على رئتيه تطيح

لقد عمد شاعرنا -وبشكل بارز- إلى توظيف شخصيّات تحمل عبق التراث في نصوصه الشعريّة، والتي تتّسم بكونها نماذج ثائرة تحمل براعم التمرّد ورفض الواقع(٣)، محاولا -كما يبدو لي- أن يخلق أو يطرح بديلا لحالة الاستكانة التي تغرق الشارع العربي وتغزو قاطنيه.

فنجده مثلا يوظّف رمز شخصيّة «عليّ» مستفيدًا من الصورة التاريخية لأحداث كربلاء وشخوصها بأبيات شعرية تفوح منها رائحة الغضب العنيف «يزيد» في قصيدته «وتريات ليلية/ الحركة الاولى»(النواب، ٢٠٠١م ٧٨)

ماذا يقدح في الغيب الأزلي أطِلوا؟

ماذا يقدحُ بالغيب؟

أسَيفُ عَليٍّ؟

قتلتنا الرِدّة يا مولاي

كما قتلتكَ بجرحٍ في الغرّة

هذا رأس الثورة يُحمَل

في طبقٍ في قصر يزيدٍ

وهذي البقعةَ أكثر من يومَ سباياك

فيالله وللحكّام ورأس الثورة

هل عَربُ أنتُمْ؟

ويزيد عمانَ على الشرفة

يستعرِضُ أعراض عراياكُمْ

ويوَزُعهنّ كلَحم الضأن لجيشِ الرِدّة

هل عربُ أنتم؟

وفي موضعٍ آخر، يصوّر مظفّر النوّاب مأساة اللاجئين الفلسطينيّين مستعينًا بالرمز الكربلائي، حيث يعقد مقارنةً دلاليّة بين رحلة سبايا آل البيت، الذين سيقوا قسرًا من الكوفة إلى الشام يتقدّمهم رأس الحسين وبقيّة الشهداء، وبين رحلة جنازة طفلٍ فلسطينيّ من اللاجئين. وفي هذا التوازي الرمزي، تتحوّل مأساة كربلاء إلى معادلٍ موضوعيّ لمأساة الفلسطينيّين، إذ يتكرّر المشهد ذاته بأدواتٍ مختلفة: قهرٌ، وسبيٌ، ومسيرٌ قسريّ، وضحيّة بريئة تُستعرض أمام عالمٍ صامت.

ومن خلال قصيدته «عرس السفائن»، يعمّق النوّاب هذا الربط، ليجعل من الطفل الفلسطيني امتدادًا رمزيًا لطفولة كربلاء المهدورة، وليؤكّد أنّ التاريخ، في وعيه الشعري، لا يُعاد بوصفه حدثًا منقضيًا، بل يُستعاد كفعلٍ مستمرّ تتبدّل وجوه جلّاديه وتبقى مأساته واحدة) محدّثي، ١٩٩٧م : ٢٨١)

الخاتمة

توصل البحث في أنماط التوظيف في القصيدة الكربلائية الى نتائج، أهمها:

نتائج الدراسة

١. تبيّن أنّ القصائد الكربلائيّة والمراثي الحسينيّة لم تكن حكرًا على شعراء المذهب الشيعي، بل شارك في نظمها شعراء من مذاهب إسلاميّة متعدّدة، بل ومن غير المسلمين، ممّن رأوا في شخصيّة الإمام الحسين إرثًا إنسانيًا عامًا، تتجلّى فيه قيم الطهارة والتقديس، ويُقصَد لذاته بوصفه رمزًا أخلاقيًا كونيًا.

٢. اتّخذ توظيف كربلاء وشخصيّة الحسين في الشعر العربي المعاصر منحىً تعبيريًا جديدًا، غدا فيه الرمز وسيلة إيحاء وتعبير عن الرؤيا المعاصرة للشاعر، لا مجرّد استحضار تاريخي. ويُعدّ هذا التوظيف أحد آخر أشكال الصلة بين الشاعر الحديث وموروثه، وقد أصبح سمة بارزة من سمات القصيدة العربيّة الحديثة.

٣. لم يقتصر الشاعر الكربلائي الحديث على تصوير الحدث التاريخي ومأساته، بل تجاوزه إلى بثّ مضامين معاصرة، متناولًا واقعة كربلاء برؤى حداثيّة وأسلوب حواري، يكشف جوهر الصراع الأبدي بين الحقّ والباطل. وفي هذا السياق، حضرت فلسطين بوصفها معادلًا نفسيًا ودلاليًا للمأساة الكربلائيّة، إذ استضاء الشعراء بيوم كربلاء لتشخيص واقعهم السياسي الراهن، ولاحظوا أوجه الشبه بين الماضي والحاضر من حيث اشتداد الظلم وغياب العدل.

٤. وبما أنّ الحسين كان صاحب قضيّتين: سياسيّة وأخلاقيّة في مواجهة الفساد الأموي، فقد تنافس الشعراء، ولا سيّما الفلسطينيّون منهم، في تقديمه رمزًا لقضيّة إنسانيّة كبرى، تقف وحيدة في ساحة المواجهة بعد تخلّي أنصارها عنها، وهي صورة تاريخيّة تُعدّ معادلًا دلاليًا لتخاذل الأمّة عن نصرة الحقّ في العصر الحاضر.

٥. كما كشفت الدراسة عن حضور كربلاء في القصائد الحديثة بوصفها رمزًا للدم العربي النازف، ولا سيّما في العراق وفلسطين، وعن وعي شعري يربط بين كربلاء والانكسارات العربيّة الكبرى، كنكسة ١٩٦٧ ونكبة فلسطين، في محاولة لاستنهاض الهمم، واستعادة روح الثورة الحسينيّة في مواجهة الاحتلال والظلم.

٦. استلهم الشعراء والأدباء من الثورة الكربلائيّة دروسًا وعِبَرًا متعدّدة، تمحورت حول حقيقة واحدة: إمّا العيش بحرّيّة وكرامة في مجتمع يسوده العدل ويتمسّك بالقيم الإسلاميّة، وإمّا التضحية بالنفس في سبيل هذه القيم. وقد تجلّت هذه الحقيقة بوضوح في نتاجاتهم الشعريّة.

إنّ الرمز الكربلائي في الزمن المعاصر غدا أنشودة ثوريّة تردّدها الشعوب التوّاقة إلى الحرّيّة والعدالة، فالحسين لم يكن موقفًا عابرًا في التاريخ، بل موقفًا خالدًا متجدّدًا. وقد اتّضح أنّ الرمز الحسيني، ببكائيّته الحادّة وطاقته الدلاليّة، شكّل همًّا مشتركًا في الشعر العربي القديم والحديث، السنيّ والشيعيّ، ممّا جعل كربلاء رمزًا تاريخيًا وإنسانيًا حاضرًا في وجدان الشعراء ونتاجاتهم على اختلاف اتجاهاتهم.

قائمة المصادر

١. أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، التبصرة. القاهرة: عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط١، ١٩٧٠.

٢. عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، البداية والنهاية. بيروت: مكتبة المعارف، ط١، ١٩٦٦.

٣. إسماعيل بن عمر ابن كثير، استشهاد الحسين. القاهرة: مطبعة المدني، ط١، ١٩٧٦.

٤. جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأنصاري، لسان العرب. بيروت: دار صادر، ط١، ٢٠٠٣.

٥. عادل الأسطة، الصوت والصدى: مظفر النواب وحضوره في فلسطين. فلسطين: النصر، ط١، ١٩٩٩.

٦. يحيى زكريا الآغا، إضاءات في الشعر الفلسطيني المعاصر. فلسطين: دار الحكمة، ط١، ١٩٩٨.

٧. محمد مهدي البصير، نهضة العراق الأدبية في القرن التاسع عشر. بغداد: مطبعة المعارف، ط١، ١٩٤٣.

٨. عبد الوهاب البياتي، الأعمال الشعرية الكاملة. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ١٩٩٥.

٩. أحمد زكي تفاحة، في رحاب ثورة الحسين. بيروت: الشركة العالمية للكتاب، ط١، ١٩٩٠.

١٠. سليمان جبارين، المبنى واللغة في شعر عبد الوهاب البياتي: دراسة أسلوبية. عكا: دار الأسوار، ط١، ١٩٨٩.

١١. سليمان جبارين، مجمع الأضداد: دراسة في سيرة الجواهري وشعره. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ٢٠٠٣.

١٢. أحمد عبد اللطيف الجدع، بدر شاكر السياب: شاعر من العراق. الأردن: دار الضياء، ط١، ١٩٨٦.

١٣. مصطفى جمال الدين، الديوان. بيروت: دار المؤرخ العربي، ط١، ١٩٩٥.

١٤. محمد مهدي الجواهري، ذكرياتي. دمشق: دار الرافدين، ط١، ١٩٩١.

١٥. سلمى الخضراء الجيوسي، الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ٢٠٠١.

١٦. علي حداد، بدر شاكر السياب: قراءة أخرى. عمّان: دار أسامة، ط١، ١٩٩٨.

١٧. عبد القادر الحصني، مظفر النواب: شاعر المعارضة السياسية، قراءة في تجربته الشعرية. دمشق: المنارة، ط١، ١٩٩٦.

١٨.حيدر الحلي، ديوان السيد حيدر الحلي. بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط١، ١٩٨٤.

١٩.شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي، معجم البلدان. بيروت: دار صادر للطباعة والنشر، ط١، ١٩٥٧.

٢٠.إبراهيم الحيدري، تراجيديا كربلاء: سوسيولوجيا الخطاب الشيعي. بيروت: دار الساقي، ط١، ١٩٩٩.

٢١.عبد المنعم خفاجي، الأصالة والتجديد في روائع الشعر العربي. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ط١، ١٩٨٢.

٢٢.جعفر الخليلي، موسوعة العتبات المقدسة. بيروت: مؤسسة الأعلمي، ط١، ١٩٨٧.

٢٣.أحمد دحبور، ديوان أحمد دحبور. بيروت: دار العودة، ط١، ١٩٨٣.

٢٤.أزهد محمد زهدي، الجواهري: صِنّاجة الشعر العربي في القرن العشرين. بيروت: دار القلم، ط١، ١٩٩٩.

٢٥.محمد محيي الدين عبد الحميد، شرح ديوان الشريف الرضي. القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ط١، ١٩٤٩.

٢٦.داود سلّوم، مقالات عن الجواهري وآخرين. النجف: مطابع دار النعمان، ط١، ١٩٧١.

٢٧.جلال الدين السيوطي، تاريخ الخلفاء. بيروت: دار الجيل، ط١، ٢٠٠٣.

٢٨.جواد شبّر، أدب الطف أو شعراء الحسين. بيروت: دار المرتضى، ط١، ١٩٨٨.

٢٩.عبد العزيز شرف، الرؤيا الإبداعية: في شعر عبد الوهاب البياتي. بيروت: دار الجيل، ط١، ١٩٩١.

٣٠.سلمان هادي الطعمة، كربلاء في الذاكرة. بغداد: مطبعة العاني، ط١، ١٩٨٨.

٣١.محمد عازم، "قصيدة القناع في الشعر السوري المعاصر-. الموقف الأدبي، دمشق: اتحاد الكتاب العرب، العدد ٤١٢، ٢٠٠٥.

٣٢.علي عباس علوان، تطور الشعر العربي الحديث في العراق. بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، ط١، د.ت.

٣٣.جابر الكاظمي، ديوان الشيخ جابر الكاظمي. بغداد: منشورات المكتبة العلمية، ط١، ١٩٦٤.

٣٤.خالد الكركي، الرموز التراثية العربية في الشعر العربي الحديث. بيروت: دار الجيل، ط١، ١٩٨٩.

٣٥.عبد الجواد الكِليدار، تاريخ كربلاء وحائر الحسين رضي الله عنه. القاهرة: مدبولي الصغير، ط١، د.ت.

٣٦.محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار: الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار. بيروت: دار التعارف للمطبوعات، ط١، ٢٠٠١.

٣٧.جواد محدّثي، موسوعة عاشوراء. ترجمة: خليل زامل العصامي. بيروت: دار الرسول الأكرم ودار المحجة البيضاء، ط١، ١٩٩٧.

٣٨.حسين مجيب المصري، كربلاء بين شعراء الشعوب الإسلامية. القاهرة: الدار الثقافية للنشر، ط١، ٢٠٠٠.

٣٩.نضال نصر الله، نزار قباني وقصائد كانت ممنوعة: في السياسة والدين والجنس. سوريا: الأوائل، ط١، ٢٠٠٣.

٤٠.مظفر النواب، وتريات ليلية. القدس: منشورات صلاح الدين، ط١، ١٩٧٧.

٤١.مظفر النواب، الأعمال الشعرية الكاملة. القاهرة: دار الكتاب الحديث، ط١، ٢٠٠١.